تفسير سورةُ الأنْبياءِ
من آية (1) إلى آية (10)
اللقاء الأول

مقدمات السورة

أسماء السورة: سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأنبياءِ).

فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضي اللهُ عنه، أنَّه قال: "سورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ (جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَر الَّتِي أُنْزِلت أوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ)، وهُنَّ مِن تِلادي"(مما حُفِظ قديمًا). (أخرجه البخاري). الدرر السنية

فضائل السورة وخصائصها: أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه: كما دلَّ عليه أثرُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضي اللهُ عنه المتقدِّمُ.

بيان المكي والمدني: سُورةُ الأنبياءِ مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غَيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.

مقاصد السورة:

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

1- بَيانُ مَعالِمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِي الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه.

2- إثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

موضوعات السورة:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- الإنذارُ بالبَعثِ، وتحقيقُ وُقوعِه.

2- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الشُّبُهاتِ التي أثارها المشرِكونَ حولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودَعوتِه، والرَّدُّ عليها.

3- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا قاله المشرِكونَ في شأنِه.

4- التَّذكيرُ بما أصاب الأُمَمَ السَّالِفةَ مِن جرَّاءِ تَكذيبِهم رُسُلَهم.

5- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى شُمولِ قُدرتِه.

6- ذِكْرُ أخبارِ بَعضِ الأنبياءِ، ومنهم موسى وهارونُ، وإبراهيمُ ولُوطٌ، وإسحاقُ ويَعقوبُ، ونوحٌ، وأيُّوبُ، وداودُ، وسُلَيمانُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ، ويُونُسُ، وزكريَّا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

7- تعقيبُ أخبارِ الأنبياءِ بالمقصودِ الأساسيّ مِن رِسالتِهم، وهو دَعوةُ النَّاسِ جميعًا إلى إخلاصِ العبادةِ لله.

8- ذِكرُ بَعضِ أشراطِ السَّاعةِ، وشَيءٍ من أهوالِها، وأحوالِ النَّاسِ فيها.

9- خُتِمَت السُّورةُ بالحَديثِ عن سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ التي لا تتخَلَّفُ، وهي أنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ؛ والحديثِ عن رِسالةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن مَوقِفِه من أعدائِه.

مناسبة خواتيم سورة طه مع فواتح سورة الأنبياء:

❶-قال تعالى في خواتيم طه (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) ما هو الأجل؟ الأجل هو القيامة وفي أول الأنبياء قال (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1).

❷قال في خواتيم سورة طه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126) نسيتها يعني أعرض عنها وفي الأنبياء قال (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) إذن ذكر الإعراض في السورتين.

❸ - في سورة طه قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133)

وفي سورة الأنبياء قال تعالى (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (5).

❹سورة طه ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التي جعلها الله لهم فتنة، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها، وأمره بالصلاة والصبر عليها، وأن العاقبة للمتقين. وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون، وقلوبهم لاهية عنه.

❺جاء في آخر سورة طه: (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا...) (135)، وفي مطلع سورة الأنبياء:(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) (1).

سورة الأنبياء مكية، نزلت بعد سورة إبراهيم، وهي في المصحف بعد سورة طه وآياتها مائة واثنا عشرة آية.

والسورة تتناول قصص أنبياء الله تعالى، ودورهم في تذكرة البشرية. هؤلاء الأنبياء هم أفضل خلق الله، وهم الذين قادوا الأرض إلى الخير والسعادة. وسورة الأنبياء تسير على نمط واحد، فهي ترينا كيف كان خطاب النبي ودعوته لقومه، وكيف كانت عبادته وتبتله لربه، لتوصلنا في النهاية إلى إثبات وحدة رسالة كل الأنبياء، كما سيتبين معنا.

وبيان خطورة الغفلة وأول مهمة من مهمات أنبياء الله تعالى هي إزالة الغفلة، لأنها سبب ضلال الناس في كل زمان ومكان، ولأنها سبب ضياع الرسالات السابقة. مرض خطير يصيب الأفراد والمجتمعات فيبعدها عن طريق الله.

فالناس إما أن يكونوا عباداً أتقياء، وإما أن يكونوا عصاة فجار، لكن الخطورة تتجلى في النوع الذي يقع بينهما، وهو الصنف الغافل اللاهي البعيد عن طاعة الله، لذلك بدأت سورة الأنبياء بداية شديدة في التحذير من هذا المرض، ثلاث آيات متتالية تحذر من هذا المرض وعوارضه:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿1﴾

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) أي: قَرُبَ وقتُ حِسابِ النَّاسِ يومَ القيامةِ على أعمالِهم التي عَمِلوها في دُنياهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: أُسلوبٌ بديعٌ في الافتتاحِ؛ لِمَا فيه من غَرابةِ الأسلوبِ، وإدخالِ الرَّوعِ على المنذَرينَ؛ فإنَّ المرادَ بالنَّاسِ مُشْرِكو مكَّةَ -على قولٍ في التفسيرِ-.

قال الواحدي: (معنى الاقترابِ هاهنا: قِصَرُ المدَّةِ التي بينَهم وبينَ الحسابِ).

قال السعدي: وفي معنى قولِه: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ قولان: أحدُهما: أنَّ هذه الأمَّةَ هي آخِرُ الأُمَمِ، ورسولُها آخِرُ الرسُلِ، وعلى أمَّتِه تقومُ الساعةُ، فقد قَرُب الحسابُ منها بالنسبةِ لِما قبلَها من الأمَمِ... والقولُ الثاني: أنَّ المرادَ بقُربِ الحِسابِ: الموتُ، وأنَّ مَن مات قامَت قيامتُه، ودخَل في دارِ الجزاءِ على الأعمالِ).

قال الرازي: ذكَرَ تعالى هذا الاقترابَ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ للمُكَلَّفينَ، فيكونُ أقرَبَ إلى تلافي الذُّنوبِ، والتحَرُّزِ عنها خوفًا من ذلك.

قال القرطبي: فمَن عَلِمَ اقترابَ الساعةِ قَصُرَ أمَلُه، وطابت نفسُه بالتَّوبةِ، ولم يركَنْ إلى الدُّنيا، فكأنَّ ما كان لم يكُنْ إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قَريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ، وموتُ كلِّ إنسانٍ قِيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضًا قريبةٌ بالإضافةِ إلى ما مضَى من الزَّمانِ، فما بقِي مِن الدُّنيا أقلُّ مِمَّا مضَى.

لقد اقترب وقت الحساب، وقرب الوقت الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم، هذه الآيات نزلت منذ أكثر 1400 سنة، فكيف بقرب الحساب اليوم؟ لكن الخطورة ليس في قرب الحساب فحسب، الخطورة في حال الناس وهم يستقبلون الحساب؟ قد يغفل الإنسان عن حلاله، قد يغفل عن عياله، لكن أن يغفل عن مصيره، عن عاقبته، عن مستقر أمره، هذا هو الخسران المبين.

(وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) أي: والحالُ أنَّهم في غفلةٍ في الدُّنيا عن اقترابِ حِسابِهم، وعمَّا يَفعَلُ اللهُ بهم في ذلك اليومِ، وقد أعرَضوا عن التفكُّرِ في الآخرةِ، وما ينتظرُهم فيها مِن الحسابِ، ولم يستعِدُّوا لها بالأعمالِ الصَّالحةِ. موسوعة التفسير

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿2﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن غَفلةِ الكافرينَ وإعراضِهم، عَلَّلَ ذلك بقَولِه

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) أي: ما يأتيهم مِن وَحيٍ من اللهِ حَديثِ النُّزولِ -لِتَذكيرِهم ومَوعِظتِهم- إلَّا استَمَعوه سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ به، فلا يَعتَبِرونَ، ولا يتَّعظُونَ به.

موسوعة التفسير

قال ابن تيمية: فإنَّ الله كان يُنَزِّلُ الْقرآنَ شيئًا بعدَ شيءٍ، فالمنزَّلُ أوَّلًا هو قديمٌ بالنِّسبةِ إلى المنزَّلِ آخِرًا. وكلُّ ما تقدَّم على غيرِه فهو قديمٌ في لُغةِ العربِ.

قال ابن كثير: (والخطابُ مع قُرَيشٍ ومَن شابَهَهم مِن الكفَّارِ).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ يريدُ الكُفَّارَ، ويتَّجِهُ من هذه الألفاظِ على العُصاةِ من المؤمنينَ قِسطُهم).

لبَيانِ تَمكُّنِ الغَفْلةِ منهم وإعراضِهم، بأنَّهم إذا سَمِعوا في القُرآنِ تَذكيرًا لهم بالنَّظرِ والاستِدلالِ، اشْتَغلوا عنه باللَّعبِ واللَّهوِ، فلمْ يَفْقهوا معانِيَه، وكان حَظُّهم منه سَماعَ ألْفاظِه.

كما قال تعالى:(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)(النجم:59 -61).

قال الرازي: ذلك ذَمٌّ للكُفَّارِ، وزَجرٌ لِغَيرِهم عن مِثلِه؛ لأنَّ الانتفاعَ بما يُسمَعُ لا يكونُ إلَّا بما يَرجِعُ إلى القَلبِ مِن تدَبُّرٍ وتفَكُّرٍ، وإذا كانوا عندَ استماعِه لاعبينَ حَصَلوا على مجَرَّدِ الاستِماعِ الذي قد تُشارِكُ البهيمةُ فيه الإنسانَ.

أخبَرَ عنهم أوَّلًا أنَّهم لا يتفكَّرونَ في عاقبةٍ، بل هم غافِلونَ عمَّا يَؤولُ إليه أمْرُهم، ثمَّ أخبَرَ عنهم ثانيًا أنَّهم إذا نُبِّهوا من سِنَةِ الغفلةِ، وذُكِّروا بما يَؤولُ إليه أمْرُ المحسِنِ والمسيءِ، أعْرَضوا عنه، ولم يُبالوا بذلك.

موسوعة التفسير

فتفكروا في الخلائق وذلهم، وانكسارهم واستكانتهم انتظارًا ما يُقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ونحن فيما بينهم منكسرين كانكسارهم، متحيرين كتحيرهم، فكيف يكون حالنا وحال قلوبنا هناك، وقد بُدلت الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وطُمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض، واجتمع الناس وهم حفاة عراة مشاة، وازدحموا في موقف شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم، فتأملوا في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه والحياء والخوف من الافتضاح عند العرض على الجبار ونحن عارين مكشوفين ذليلين متحيرين منتظرين لما يجري علينا القضاء بالسعادة أو الشقاوة، اللهم اجعلنا من السعداء.

ليس الأسف على دنيا آخرها الفوت والخراب، ولا على أموالٍ نهايتها التحول والانقلاب، ولا على حطام حلاله حساب وحرامه عقاب، ولا على أعمال يتمنى المرء طولها، فإذا طالت مُلت، ولا على أماكن كلما امتلأت بأهلها أقفرت عنهم وتخلت، إنما الأسف على ليالٍ تنقضي على فرش الغَفَلات، وعلى أيامٍ تمضي في اتباع الشهوات، وعلى أوقات تنطوي على عثرات وهفوات.

الغفلة في الآية جاءت بصيغة الدوام، فهؤلاء الناس مستمرون في غفلتهم لا يبرحون عنها، ولا ينصرفون عنها، ولا يعالجونها، ولا يستيقظون منها، توجهوا إلى المتع المادية الدنيوية، وانغمسوا في اللهو واللعب والتجارة والكسب، وأعرضوا بقلوبهم عن الحساب، وعن ذكر الآخرة لدرجة أنهم أثناء تلاوة الآيات عليهم، وسماع الوعظ يستمعون إليه وهم مستمرون في اللعب: (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (الأنبياء: 2).

الغفلة: درجات، فغفلة الكافر غفلة كاملة -نسأل الله العفو والعافية- أما المسلم فغفلته أخف؛ صح عند الترمذي والنسائي وغيرهم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله -ﷺ-: " مَن سَكن البادية جَفا ومَن اتَّبع الصَّيد غَفَلَ ومَن أتَى السُّلطانَ افتُتِنَ ".

قال العلماء: "من اتبع الصيد" أي لازم اتباع الصيد، والاشتغال به غفل عن الطاعة والعبادة، ولزوم الجماعة والجمعة.

قديما كان الصيد مشغلة وغفلة، أما اليوم من اتبع الانترنت الساعات الطوال غفل، ومن أدمن على الفضائيات غفل، ومن خالط وعاشر أهل الغفلة غفل.

ينبغي على المسلم أن يتنزه عن الغفلة، وبالذات الغفلة عن واقعنا الإيماني، عن مستوى إقباله عن الطاعات، الغفلة عن مدى انغماسه في المعاصي، صغيرها وكبيرها، الغفلة عن مدى بعده عن كتاب الله -تعالى-، وهجره إياه، الغفلة عن الموت، الموت الذي هو أقرب لأحدنا من شراك نعله.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [الروم: 7] الحياة الدنيا قصيرة فانية، متاع الغرور، الحياة الدنيا التي تعد إلى جانب الحياة الآخرة كالقطرة إلى جانب البحر المتلاطم، يعني لا شيء؛ يقول -ﷺ-: " واللَّهِ ما الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هذِه، وأَشارَ يَحْيَى بالسَّبَّابَةِ، في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ تَرْجِعُ؟" (صحيح مسلم)

لاحظوا قوله تعالى: (ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يعني أنهم ما أدركوا حقيقة الحياة الدنيا، حتى الحياة الدنيا ما أدركوا حقيقتها، ولا جوهرها، ولا الغاية منها، وإنما تركز جهدهم من وقت ومال وتفكير وحركة وإنفاق في معرفة ظواهرها في التعلق بقشورها، وغفلوا عن سر الحياة.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿3﴾

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) أي: غارِقةً قُلوبُهم في اللَّهوِ والغَفلةِ عن القرآنِ، مُتشاغِلةً بدُنياها وشَهَواتِها عن التأمُّلِ والتفَهُّمِ لِمَعانيه، فلا يتدَبَّرونَ حِكَمَه، ولا يتفَكَّرونَ فيما أودَعَ اللهُ فيه مِن الحُجَجِ والبراهينِ. موسوعة التفسير

السيرُ إلى الله سيرُ قلوب لا سير أبدان، فتفقد قلبك. تدبر

"غفلت قلوبهم" عن الالتفات إلى الغاية من الحياة، وحقيقة الدنيا بأنها قصيرة، وأنها فانية، وأن هناك جنة، وأن هناك نارا، وأننا خلقنا لعبادة الله، إلى آخره من هذه المفاهيم، قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون: 115].

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... في صورَةِ الرَجُلِ السَميعِ المبصِرِ

فطن بكل مصيبة في ماله ... وَإِذا أُصيبَ بِدينِهِ لَم يَشعُرِ

هناك غفلة مخيفة، نجدها في حياة المسلمين، يركضوا وراء الدنيا، متيقظين لمتاعها وأموالها، وزخارفها، وفي الجهة الأخرى خاملين غافلين عن الآخرة، وما أسهل أن يتنازلوا عن الآخرة من أجل حطام الدنيا؛ كما قال -ﷺ-: " يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا " صحيح مسلم.

نوم عن الصلاة، تعامل بالربا، استماع للمحرمات من موسيقى وغناء، غش ورشاوى، إهمال للحجاب وموالاه للكفار، وسوء ظن بالله -تعالى- وقصد الكهان، واستخدام السحر، أمور كثيرة تنم عن غفلة، وبعد عن الله -تعالى-.

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) أي: وبالَغَ مُشرِكو قُرَيشٍ في إخفاءِ المناجاةِ فيما بيْنهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ من اللهِ إليكم إلَّا إنسانٌ مِثلُكم في صُوَرِكم وخَلْقِكم، واحتياجِه للطعامِ والشَّرابِ وغَيرِ ذلك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)[الإسراء: 94].

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) أي: أفتَقبَلونَ مِن محمَّدٍ القُرآنَ، وتصَدِّقونَ به وتتَّبِعونَه، وأنتم تَعلَمونَ وتُدرِكونَ أنَّه سِحرٌ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا[الإسراء: 47- 48].

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ بالإتيانِ هنا حُضورُ النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِسَماعِ دَعوتِه، فجعلوه إتيانًا؛ لأنَّ غالِبَ حُضورِ المجالِسِ أن يكونَ بإتيانٍ إليها، وجعلوا كلامَه سِحرًا، فنَهَوا مَن ناجَوهم عن الاستِماعِ إليه. وهذا كقَولِه تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) [فصلت: 26].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿4﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: أنَّ الله تعالى لما أورَدَ هذا الكلامَ عَقِيبَ ما حكَى عن الكافرينَ؛ وجَب أن يكونَ كالجوابِ لِما قالوه، فكأنَّه قال: إنَّكم وإنْ أخفيتُم قَولَكم وطَعْنَكم، فإنَّ ربِّي عالمٌ بذلك، وإنَّه مِن وَراءِ عقوبتِه، فتُوعِّدوا بذلك؛ لكي لا يعودوا إلى مِثلِه:

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) أي: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكفَّارِ الذين يكذِّبونَه: ربِّي يعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ سِرًّا كان أو جَهرًا، لا يخفَى عليه شَيءٌ ممَّا يُقالُ فيهما، وهو الذي أنزَل هذا القُرآنَ المشتَمِلَ على خبَرِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه إلَّا الذي يعلَمُ السرَّ في السَّمواتِ والأرضِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الفرقان: 4 – 6].

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي: واللهُ هو السَّميعُ لكلِّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِنا وما في قُلوبنا، وبالصَّادِقِ والكاذِبِ منَّا. موسوعة التفسير

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿5﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى عن الكافرينَ أنَّهم قالوا: إنَّ ما أتَى به سِحرٌ؛ ذكَرَ اضطرابَهم في مقالاتِهم، فذكَر أنَّهم أضرَبوا عن نسبةِ السِّحرِ إليه، وقالوا: ما يأتي به إنَّما هو أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، ثمَّ أضرَبوا عن هذا فقالوا: بَلِ افْتَرَاهُ، أي: اختَلَقَه وليس مِن عندِ الله، ثمَّ أضرَبوا عن هذا فقالوا: بَلْ هُوَ شَاعِرٌ، وهكذا المبطِلُ لا يَثبُتُ على قَولٍ، بل يبقى متحَيِّرًا

(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) أي: بل قال الكافِرونَ: القرآنُ أشياءُ مُختَلِطةٌ رآها محمَّدٌ في منامِه ولا حقيقةَ لها، بل هو كذِبٌ افتراه محمَّدٌ مِن قِبَلِ نفْسِه، بل محمَّدٌ شاعِرٌ جاءكم بشِعرٍ، وزعم أنَّه مِن عندِ ربِّه. موسوعة التفسير

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) أي: قال الكافرونَ: فَلْيَأْتِنَا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ حِسِّيَّةٍ تدُلُّ على صِدقِه، كما أيَّدَ اللهُ رُسُلَه السَّابقينَ بالمعجِزاتِ؛ كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، ومعجزاتِ عيسى، وغيرِ ذلك من المعجزاتِ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، ولا يأتي بها إلَّا الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ. موسوعة التفسير

قال ابن حيان: دَلالةٌ على مَعرفتِهم بإتيانِ الرُّسلِ.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿6﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: أنَّ اللهَ تعالى أجاب عن قَولِ الكافرينَ: فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ بِقَولِه (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) أي: ما آمنَ قَبلَ كفَّارِ قُرَيشٍ أهلُ القُرى مِن الأُمَمِ الماضيةِ الذين اقتَرَحوا على رسُلِهم الآياتِ ثمَّ كذَّبوا بها لَمَّا جاءتْهم، فأهلَكْنا تلك القُرى وجميعَ أهلِها، أفيُؤمِنُ كفَّارُ قُرَيشٍ إذا أتَتْهم مُعجِزةٌ ممَّا يَقتَرِحونَ. موسوعة التفسير

أي: إنَّه لم تُؤْمِنْ أُمَّةٌ مِن الأُمَمِ المهلَكةِ عندَ إعطاءِ ما اقتَرَحوهُ مِن الآياتِ؛ أفهؤلاءِ يُؤمِنونَ لو أُجِيبُوا إلى ما سَأَلوا، وأُعْطوا ما اقتَرَحوا، مع كونِهم أعْتى منهم وأطْغَى؟! موسوعة التفسير

إنَّما أمسَكَ اللهُ الآياتِ الخوارِقَ عن مُشرِكي مكَّةَ؛ لأنَّه أراد استبقاءَهم؛ ليكونَ منهم مؤمِنونَ، وتكونَ ذرِّيَّاتُهم حملةَ هذا الدِّينِ في العالَمِ، ولو أُرسِلَت عليهم الآياتُ البَيِّنةُ لكانت سُنَّةُ الله أن يَعقُبَها عذابُ الاستئصالِ للَّذينَ لا يُؤمِنونَ بها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) [يونس: 96، 97].

وقال سُبحانَه: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) [الإسراء: 59].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿7﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أوَّلًا أنَّ الآياتِ تكونُ سَبَبًا للهلاكِ، فلا فائدةَ في الإجابةِ إلى ما اقتَرَحه الكافِرونَ منها بعد بُطلانِ ما قَدَحوا به في القُرآنِ؛ بيَّن ثانيًا بُطلانَ ما قَدَحوا به في الرَّسولِ بكَونِه بَشَرًا، بأنَّ الرُّسُلَ الذين كانوا مِن قَبلِه كانوا -بإقرارِهم- مِن جِنسِه، فما لهم أن يُنكِروا رِسالَتَه وهو مِثلُهم؟! بل عليهم أن يَعتَرِفوا له عندما أظهَرَ مِن المعجِزِ كما اعتَرَفوا لأولئك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) أي: وما أرسَلْنا قبلك -يا محمَّدُ- من الأنبياءِ لأُمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا رِجالًا مِن البَشَرِ مِثلَهم، لا مِن الملائكةِ، فنُوحي إليهم ما نريدُ، فلماذا أنكَروا إرسالَنا لك إليهم، وأنت رجلٌ كسائِرِ الرسُلِ الذين أُرسِلوا قَبْلَك إلى أُمَمِهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) [يوسف: 109].

قال السعدي: في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ النِّساءَ ليس منهنَّ نبيَّةٌ، لا مريمَ ولا غيرَها؛ لِقَولِه تعالى: إِلَّا رِجَالًا.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أي: فاسألوا أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنزَّلةِ مِن قبْلُ إنْ كنتُم لا تعلمونَ أنَّ كلَّ الأنبياءِ مِنَ البَشَرِ؛ لِيُخبِروكم بما يَعلَمونَه مِن كَونِ جَميعِ الأنبياءِ بَشَرًا لا ملائكةً. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (وسماهم أهلَ الذكرِ؛ لأنهم كانوا يذكُرونَ خبَرَ الأنبياء ممَّا لم تعرِفْه العرب، وكان كفَّارُ قُريش يراجِعونَ أهلَ الكتابِ في أمرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم).

قال السعدي: عامٌّ في كلِّ مَسألةٍ مِن مَسائِلِ الدِّينِ -أصولِه وفُروعِه- إذا لم يكُنْ عندَ الإنسانِ عِلمٌ منها أن يسألَ مَن يَعلَمُها؛ ففيه الأمرُ بالتعَلُّمِ والسؤالِ لأهلِ العِلمِ، ولم يؤمَرْ بسُؤالِهم إلَّا لأنَّه يجِبُ عليهم التعليمُ والإجابةُ عمَّا عَلِموه.

قال السعدي: في تخصيصِ السُّؤالِ بأهلِ الذِّكرِ والعِلمِ نَهيٌ عن سؤالِ المعروفِ بالجَهلِ وعَدَمِ العلمِ، ونهيٌ له أن يتصَدَّى لذلك.

قال ابن القيم: لله تعالى حِكَمٌ في إبقاءِ أهلِ الكِتابَينِ بينَ أظهُرِنا؛ فإنَّهم مع كُفرِهم شاهِدونَ بأصلِ النبُوَّاتِ، والتوحيدِ، واليومِ الآخِرِ، والجنَّةِ والنَّارِ، وفي كُتُبِهم من البِشاراتِ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وذِكرِ نُعوتِه وصفاتِه وصفاتِ أُمَّتِه- ما هو مِن آياتِ نبُوَّتِه وبراهينِ رِسالتِه، وما يشهَدُ بصِدقِ الأوَّلِ والآخِرِ، وهذه الحِكمةُ تختَصُّ بأهلِ الكِتابِ دونَ عَبَدةِ الأوثانِ؛ فبقاؤُهم مِن أقوَى الحُجَجِ على مُنكِرِ النبُوَّاتِ والمعادِ والتوحيدِ، وقد قال تعالى لمنكري ذلك: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، ذكَرَ هذا عَقِبَ قَولِه: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، يعني: سلُوا أهلَ الكِتابِ: هل أرسَلْنا قبل محمَّدٍ رِجالًا يُوحَى إليهم، أمْ كان محمَّدٌ بِدْعًا من الرسُلِ لم يتقَدَّمْه رسولٌ، حتى يكون إرسالُه أمرًا مُنكَرًا لم يَطرُقِ العالَمَ رَسولٌ قبلَه.

وإذا سقنا القاعدة المشهورة بين يدي الآية وهي قول أهل العلم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن الآية تعم أشياء كثيرة في حياتنا، ومنها:

أن الإنسان إذا نزلت به نازلة أو حلت به مشكلة، واحتاج إلى السؤال عنها فإنه يجب أن يسأل أهل التخصص والإفتاء، لا كما يفعل الناس اليوم يسألوا عنها أقرب شخص لهم، دون أن ينظروا لحالهم من العلم؟ وبعض الناس يعتمد على المظاهر، فإذا رأى من سيماه الخير ظنّ أنه من أهل العلم الذين يستفتى مثلهم! وكل ذلك غلط بيّن، ومخالف لما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). ولا أدرى لماذا لا يلجأ أحد هؤلاء حين يمرض إلى أي إنسان في الشارع فيسأله؟ ولا فرق بين الصورتين، فحياة البدن ليست أهم من حياة القلب، ليس كل من يتكلم في الدين عالم؛ فإن الناس بسبب ضعف إدراكهم، وقلة تمييزهم يظنون أن كلّ من يتحدث عن الإسلام عالم، ويمكن استفتاؤه في مسائل الشرع! ولا يفرقون بين الداعية أو الخطيب وبين العالم الذي يعرف الأدلة، ومناطاتها، فظهر تبعًا لذلك ألوان من الفتاوى الشاذة، بل الغلط الذي لا يحتمل، ولا يُقْبَل، وكثر اتباع الهوى وتتبع الرخص من عامة الناس، فرقّت أديانهم، وضعفت عبوديتهم، بأسباب من أهمها فوضى الفتاوى، فضرورة تحرى الإنسان في سؤاله، وألا يسأل إلا من تبرأ به الذمة، ومن هو أتقى وأعلم وأورع، فهؤلاء هم أهل الذكر حقًّا الذين نصت هذه القاعدة على وصفهم بهذا: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿8﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:قال البقاعي: لَمَّا بيَّنَ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على سُنَّةِ مَن مضَى مِنَ الرُّسُلِ في كَونِه رَجُلًا؛ بيَّن أنَّه على سُنَّتِهم في جميعِ الأوصافِ التي حكَمَ بها على البَشَرِ مِنَ العَيشِ والموتِ، فقال

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) ي: وما جعَلْنا الأنبياءَ أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، بل كانوا بشرًا مِثلَك يأكلونَ الطَّعامَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) [الفرقان: 20].

(وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) أي: وما كان الأنبياءُ السَّابقونَ خالدينَ في الدُّنيا لا يموتونَ، بل كانوا بشرًا عاشُوا ثمَّ ماتوا، وإنَّما تميَّزوا عن النَّاس بما يأتيهم عن الله سُبحانَه مِن الوحيِ. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿9﴾

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ) أي: ثمَّ صدَقْنَا رسُلَنا ما وعَدْناهم من إهلاكِ أعدائِهم الكافرينَ المكَذِّبينَ، ونَصْرِهم عليهم، فأنجَينا أولئك الرسُلَ وأتباعَهم الذين آمَنوا بهم مِن أممِهم. موسوعة التفسير

هذه سيرتُه تعالى مع أنبيائِه، فكذلك يَصدُقُ نَبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه ما وعَدَهم به من النَّصرِ وظُهورِ الكَلِمةِ؛ فهذه عِدَةٌ للمُؤمِنينَ، ووعيدٌ للكافرينَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) [يوسف: 110].

وقال سُبحانَه:(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) [الصافات: 171-173].

(وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) أي: وأهلَكْنا جميعَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، والإصرارِ على تكذيبِ رُسُلِ الله، فأبَدْناهم، ومحَوْنا ذِكْرَهم. موسوعة التفسير

قال ابن عطية:(المسرِفونَ: الكُفَّارُ المفرِطونَ في غَيِّهم وكُفرِهم، وكُلُّ مَن ترك الإيمانَ: مُفْرِطٌ مُسرِفٌ).

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿10﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:قال المراغي: بعدَ أن حَقَّق اللهُ رسالتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَيانِ أنَّه كسائرِ الرُّسُلِ الكِرامِ، شَرَع يحَقِّقُ فَضلَ القُرآنِ الكريمِ ويُبَيِّنُ نَفْعَه للنَّاسِ، بعد أن ذَكَر في صَدرِ السُّورةِ إعراضَ النَّاسِ عمَّا يأتيهم مِن آياتِه، واضطرابَهم في شأنِه.

قال ابن حيان: وأيضًا لَمَّا تَوَعَّدَهم في الآيةِ السابقةِ؛ أعقبَ ذلك بوعدِه بنعمتِه عليهم، فقالَ **(لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ)** أي: لقد أنزَلْنا إليكم قرآنًا فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه شَرَفُكم وعِزُّكم. موسوعة التفسير

قال السعدي: (فِيهِ ذِكْرُكُمْ أي: شرفُكم وفخرُكم وارتفاعُكم، إن تذكَّرْتُم به ما فيه مِن الأخبارِ الصادقةِ فاعتقدتموها، وامتثَلْتُم ما فيه مِن الأوامرِ، واجتَنَبْتُم ما فيه مِن النواهي، ارتفَع قدرُكم، وعظُم أمرُكم).

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أي: أفلا تَعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ شَرَفَكم، وهدايتَكم إلى ما فيه صلاحُكم، فتُؤمِنوا به، وتتدبَّروه وتَعمَلوا بما فيه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: الذِّكْرُ يُطْلَقُ على التَّذكيرِ بما فيه الصَّلاحُ، ويُطْلَقُ على السُّمعةِ والصِّيتِ. وقد أُوثِرَ هذا المصدَرُ هنا، وجُعِلَ مُعرَّفًا بالإضافةِ إلى ضَميرِ المخاطَبينَ؛ ليكونَ كَلامًا مُوجَّهًا، فيَصِحَّ قصْدُ المعنيينِ معًا من كَلمةِ (الذِّكْرِ) بأنَّ مَجيءَ القُرآنِ مُشتمِلًا على أعظَمِ الهُدى؛ هو تَذكيرٌ لهم بما به نِهايةُ إصلاحِهم، ومَجيئُه بلُغَتِهم، وفي قومِهم، وبواسطةِ واحدٍ منهم؛ سُمْعةٌ عظيمةٌ لهم، وعلى المعنيينِ يكونُ لتَفريعِ قولِه تعالى: أَفَلَا تَعْقِلُونَ أحسَنُ مَوقعٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ لنفْيِ عَقْلِهم مُتَّجِهٌ على كِلا المعنيينِ؛ فإنَّ مَن جاءهُ ما به هدْيُه، فلم يَهتَدِ، يُنْكَرُ عليه سُوءُ عقْلِه، ومَن جاءهُ ما به مَجْدُه وسُمْعَتُه، فلم يَعبَأْ به، يُنْكَرُ عليه سُوءُ قَدْرِه للأمورِ حَقَّ قدْرِها، كما يكونُ الفضْلُ في مثْلِه مُضاعَفًا.

قال السعدي: هذه الآيةُ مِصداقُها ما وقع للمُؤمِنينَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فالذين تذَكَّروا بالقُرآنِ مِن الصَّحابةِ فمَن بَعدَهم حصل لهم مِن الرِّفعةِ والعُلُوِّ الباهِرِ، والصِّيتِ العَظيمِ، والشَّرَفِ على الملوكِ- ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحَدٍ، كما أنَّه معلومٌ ما حصل لِمَن لم يرفَعْ بهذا القرآنِ رأسًا، ولم يهتدِ به ويترَكَّ به، مِن المقتِ والضَّعَةِ، والتَّدسيةِ والشَّقاوة؛ فلا سبيلَ إلى سَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ إلَّا بالتذَكُّرِ بهذا الكِتابِ.

شَرَفٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَرِفْعَةٌ وَكَرَامَةٌ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِأَهْلِ الْقُرْآنِ: قال-ﷺ-:" إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهذا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ ". صحيح مسلم

أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ اغْتِبَاطًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قال-ﷺ-:"يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا" صحيح أبي داود.

لَقَدْ عَرَفَ عَظَمَةَ فَضَائِلِ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَعَجَّتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ، وَرَقَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَاقْشَعَرَّتْ مِنْ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ جُلُودُهُمْ.

نَعَمْ، لَقَدْ قَرَؤُوا حُرُوفَهُ، وَأَقَامُوا حُدُودَهُ، وَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهُ، وَتَفَكَّرُوا فِي عَجَائِبِهِ، وَعَمِلُوا بِمُحْكَمِهِ، وَآمَنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، فَأَصْبَحُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسِيرُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَهُوَ يَحْمِلُ أَخْلَاقَ الْقُرْآنِ، وَآدَابَ الْقُرْآنِ، وَمَبَادِئَ الْقُرْآنِ، فَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا بِبَرَكَةِ هَذَا الْقُرْآنِ، الَّذِي هَذَّبَ أَهْلَهُ، وَزَكَّى نُفُوسَهُمْ، وَقَوَّمَ سُلُوكَهُمْ، فَجَعَلَهُمْ أُسْوَةً وَمَثَلًا بَاقِيًا.